

عرائض الجزائريين ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر ميلادي

Algerian petitions against French colonial policy during the nineteenth century

¹غانم بouden.ghanem@cu-tipaza.dz — مخبر الدراسات التاريخية والأثرية

المركز الجامعي مرسلني عبد الله تيبازة

تاريخ الإرسال: 2025-02-14. تاريخ القبول: 2025-02-17. تاريخ النشر: 2025-06-02

ملخص:

تتناول الورقة البحثية موضوع العرائض الجزائرية خلال القرن التاسع عشر ميلادي ضد السياسة الاستعمارية التي مست كل جوانب الحياة في الجزائر بعد التغلب العسكري الفرنسي، فأعيان الجزائر وعلمائها حاولوا الاحتجاج على الممارسات القمعية والمصادرات التي مست أراضيهم والقوانين التعسفية فكتبوا الكثير من العرائض الاحتجاجية وأوصلوها لسلطات الاحتلال سواء في الجزائر أو باريس.

إن هذه العرائض على الرغم من فقدانها الصيغة الإلزامية لسلطات الاحتلال على إنصاف الجزائريين إلا أنها جسدت بدايات المقاومة السياسية السلمية التي قامت على محاربة النظام الاستعماري آخذة بعين الاعتبار عامل الفرق في القوة العسكرية، فهي إن دلت على شيء فإنما تدل على تواصل حالة الرفض الجزائري للاستعمار الفرنسي وتغير وسائل التعبير بما يدل على استمرار ردود الفعل الوطنية.

الكلمات المفتاحية: المقاومة؛ العرائض؛ القوانين الفرنسية؛ المطالب؛ الأعيان.

Abstract :

The military defeat of the Algerians did not lead them to submission and absolute obedience to the leaders of the occupation army, but rather made them resort to other means to resist colonial policy and its negative effects, and to object to what affected their religious sanctities and personal status, so petitions appeared.

Although these petitions lacked the binding formula for the occupation authorities to do justice to the Algerians, they embodied the beginnings of peaceful political resistance that was based on dialogue with the colonial regime, taking into account the factor of the difference in military power. If they indicate anything, they indicate the continuation of the Algerian state of rejection of French colonialism and the change in means of expression, which indicates the continuation of national reactions

.Key -words : Resistance; petitions; French laws; demands; notables

¹ غانم بouden

مقدمة :

إن الهزيمة العسكرية للجزائريين لم تؤد بهم إلى الاستكانة والخضوع المطلق لقادة جيش الاحتلال، بل جعلتهم يلجأون إلى وسائل أخرى لمقاومة السياسة الاستعمارية، وتأثيراتها السلبية في جميع الميادين، ويعترضون على ما يمس مقدساتهم الدينية، وأحوالهم الشخصية فظهرت العرائض كنوع من المقاومة السلمية الجزائرية.

وقد ظهرت العرائض منذ بداية الاحتلال جرّاء انتهاك قادة جيش الاحتلال الفرنسي حقوق الجزائريين وممتلكاتهم ومقدساتهم الدينية رغم تعهداتهم باحترامها، وتطورت وتنوعت العرائض مع تقدم الاحتلال وكثرت بسبب اختلال التوازن في ميزان القوى بين الجزائر وفرنسا مما اضطر الجزائريين إلى اتخاذ موقف الدفاع السلمي في الصراع غير المتكافئ.

1- ظهور العرائض:

تشكّلت العرائض كوسيلة للتعبير عن الرفض والغضب من خلال الشكاوى التي حررها الأهالي، وأرسلوا بها إلى السلطات الاستعمارية سواء في الجزائر أو في باريس، وكانت كتابة العرائض وإرسالها إلى المسؤولين على مختلف المستويات تمثل سجلا ينبض بالحياة لموقف الشعب وردود فعله أمام القضايا التي واجهته، فاعتماد العريضة كأسلوب للعمل السياسي ظهر منذ السنة الأولى للاحتلال ثم اختفت لتعود في العقد الثامن من القرن التاسع عشر⁽¹⁾. وكانت أولى العرائض عريضة أهالي الجزائر إلى قوات الاحتلال بعد سقوط القصبه، واستيلاء الجيش الفرنسي على الأوقاف والممتلكات، وتنصله عما جاء في معاهدة الاستسلام، وكانت مطالب العريضة ضرورة استرجاع الممتلكات الجزائرية، ووقف المظالم الاستعمارية، وكان منطلق العرائض من مدينة الجزائر التي استقر بها العدو قبل توسعه في مناطق أخرى⁽²⁾، منها عرائض حمدان خوجة وأحمد بوضربة.

وعرفت العرائض تزايدا مستمرا بسبب التوسع الاستعماري، وكثرة الاعتداءات الفرنسية على الجزائريين والتي مست مختلف الجوانب الاقتصادية والدينية والثقافية مما جعل نخبة المدن تأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عما تبقى للجزائريين بعد سقوط السلطة السياسية، ودلّت العرائض على تتبع الجزائريين لسياسة الاحتلال، ومحاولاتهم

¹ - جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994، ص 174.

² - أحمد مريوش: «ثقافة المقاومة ونماذج من عرائض الأهالي الجزائريين إلى فرنسا خلال القرن 19 م»، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع 6، المدرسة

العليا للأساتذة بوزريعة، (ديسمبر 2012)، ص 117.

في مواجهته من خلال تشاورهم وتداولهم للقضايا المطروحة للحسم فيها لذلك ظهرت عرائض فردية وجماعية في مختلف مناطق الوطن⁽¹⁾. ففي سنة 1833 بعث أعيان قسنطينة⁽²⁾ عريضة إلى البرلمان الانجليزي حملت توقيع حوالي ألفين ومائتين وخمسين شخصا (2250)⁽³⁾، يطلبون منه التدخل لصالح حماية حقوق الإنسان في الجزائر، في محاولة منهم استخدام نوع من الضغط الدولي على السلطات الاستعمارية الفرنسية، واستعطاف إنجلترا بتذكيرها أنها أرسلت مساعدات مالية إلى الهند لأجل تحرير العبيد بها احتراماً لحقوق الإنسان، وبأن قنصلها كان وسيطاً في اتفاق سنة 1830 الذي لم تحترم فرنسا بنوده، وكانت لهجتها شديدة بتعديدها جرائم الاستعمار، وإعلان أصحابها بخضوعهم للسلطان العثماني وعدم استعدادهم «للخضوع للعدو الذي غدر بهم، وبذل دينهم وافتك مساجدهم واستولى على صدقات فقرائهم، فالواجب يُحتم عليهم محاربته»⁽⁴⁾.

وفي سنة 1834 كتب أعيان مدينة الجزائر عريضة موقعة من تسعة وعشرين (29) شخصا بتاريخ 13 سبتمبر 1834 تحتج على إهانة القضاء الإسلامي من قبل فرنسا وانتهاك ضباطها لحرمة⁽⁵⁾، وحينما سألت الإدارة الفرنسية القاضي عبد العزيز عن سبب كتابة العريضة رد عليهم بقوله: "إننا صبرنا على كل ضرر حتى على بيع عظام أمواتنا، ولكن لا نصبر على هتك حرمة الشرع"⁽⁶⁾ مما يعطي العريضة الطابع النضالي للدفاع عن المقدسات الدينية.

وفي سنة 1860 قدّم بعض الجزائريين عريضة أخرى إلى الحكومة الفرنسية محتجين فيها ضد مشروع إنشاء حكم مدني في الجزائر، وتلتها عرائض أخرى تذكر الإدارة الفرنسية بالتزاماتها في اتفاق سنة 1830، وتطالب بوضع حد لسلطة الكولون⁽⁷⁾، منها عريضة أحمد ولد قاضي التي قدّمها سنة 1878 خلال زيارته

¹ - نفسه، ص 117.

² - أرباب الأسر الكبيرة والفقهاء والأساتذة والعلماء ورؤساء سكان البادية. أنظر:

جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 77.

³ - قنان: قضايا ودراسات، ص 163.

⁴ - أحمد مريوش: المرجع السابق، ص 78.

⁵ - تعود أسباب العريضة إلى قضية طلاق حكم خلالها قاضي المالكية عبد العزيز بتريص المرأة ثلاثة أشهر حسب الشرع، وفي اثناء المدة تنصرت وذهبت إلى صديق لها، فلما سمع القاضي طلبها لتكمل عدتها مع أولادها ولما دخلت المحكمة هجم بيليسي (Pellissier) على المحكمة وأخذها بالقوة فاعتبرها القاضي هتكا لحرمة القضاء وإهانة للقاضي فاستقال من منصبه. للمزيد أنظر: نفسه، ص 75-76.

⁶ - أحمد مريوش: المرجع السابق، ص 118.

⁷ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج 2، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 173.

لباريس حيث تضمنت الشروح الكافية عن سياسة فرنسا غير العادلة تجاه الأهالي في أموالهم ودينهم ومعتقداتهم⁽¹⁾، وعبرت عن عدم ملائمة القوانين الفرنسية للجزائريين لما فيها ضياع الحقوق لتوسط اليهود السماسرة، وطول آجالها، وكثرة مصاريفها، وجهلهم بها، وطالبت بالاهتمام بمصالح العرب أكثر من الأوربيين بحكم أغليبيتهم فهم يشكلون ثلاثة ملايين مقابل مائتين وعشرين ألف أوربي⁽²⁾.

وفي 10 جويلية 1887 كتب أهالي قسنطينة عريضة إلى أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء البرلمان الفرنسي، موقعة بألف وسبعمائة (1700) توقيع لمختلف الفئات السكانية كالمنتخبين، المدرسين، التجار، والمزارعين تتحدث باسم الجزائر ضد التجنس، مبرزين أن الجنسية تلغي قوانينهم ونظمهم وشريعتهم الإسلامية، وضد انتهاك حقوق القضاء الإسلامي، وطالبوا بتنظيم التعليم، وتعيين لجنة للتحري عن الوضع في العملات الجزائرية⁽³⁾. وبهذه العريضة افتتح أعيان قسنطينة طريقة جديدة في النضال السياسي، وعبروا عن وعي قومي عميق للرد على محاولات الاستعمار الإدماجية⁽⁴⁾.

وفي قسنطينة دائما جدد السكان استياءهم من الإجحاف الذي يعانونه في عريضة إلى أعضاء مجلس الشيوخ والنواب سنة 1892 تحتج على كثرة الضرائب، وأعمال السخرة، مطالبة ممثلين أهالي إلى باريس يعرفون جيّدا مطامح السكان، وناشدت فرنسا التي تحمل مبادئ الحرية والعدل والمدنية ألا ترفض مطالب الشعب الذي وضعه القدر تحت جناح وصايتها⁽⁵⁾. وفي جواب على مراسلة للجنة البرلمانية كتب القايد يحي شريف أحمد بن سليمان المستشار العام بعمالة قسنطينة في 28 جويلية 1891 عن الأضرار التي أصابت الجزائريين جزاء قوانين التملك، وقانون الأسماء النسبية (الحالة المدنية 1882)، وأشغال السخرة، والمكوس مطالباً بتكثير المدارس، وتعليم اللغة العربية والفرنسية معا⁽⁶⁾.

1- أحمد مريوش: المرجع السابق، ص 118.

2- جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية، ص 176.

3- نفسه، ص ص 198-202.

4- مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 238.

5- جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية، ص 250-251.

6- يحي شريف أحمد: جواب من القايد يحي شريف أحمد بن سليمان، كونسيلي جنرال بعمالة قسنطينة الساكن بقصر الطير حكم سطيف، أجاب به راييس الكومسيون بباريس عن المسألة الجزائرية، مطبعة روكة، سطيف، 1891.

وفي سنة 1891 كتب مجموعة من المستشارين البلديين الأهالي في عمالة قسنطينة عريضة إلى مجلس الشيوخ احتجت على وضع الأهالي الفقراء بسبب القوانين الفرنسية، وعلى حرمانهم من حق تملك أراضي الدومين، والسماح لغيرهم من المعمرين بذلك بموجب قانون 30 سبتمبر 1878⁽¹⁾، كما تضمنت مطالب الدفاع عن اللغة العربية، وحق الجزائريين في تعلمها، ورفع القيود عن القضاء الإسلامي، وحثت العريضة بالتماس حول العدالة في دفع الضرائب، وحق التصويت في المجالس العامة ومجلس الشيوخ⁽²⁾.

ولم تشذ مناطق الجنوب والغرب عن ثقافة العرائض فحاول أهل الجنوب التعبير عما يعانونه من ضيم الاستعمار، وقوانينه التعسفية فكتبوا عريضة سنة 1882 إلى الحاكم العام لويس تيرمان (Tirman Louis) تضمنت المطالبة بتطوير أشجار النخيل، وحفر الآبار للمياه، وإحداث محطات لتسهيل التنقل والسفر، وتسهيل التبادل التجاري، والعناية بأمور الديانة الإسلامية، ونشر التعليم، وتوفير الصحة⁽³⁾. وفي الغرب قدّم أعيان تلمسان عريضة إلى وزير الحربية في 7 أبريل 1891 ممضاة بـ (11791) توقيع ترفض التجنس والخدمة العسكرية الإجبارية باعتبارهما ضد المبادئ الدينية الإسلامية، وتطالب برفع التعسف والظلم، وتحسين الوضع الاجتماعي، وتذكر بعريضة سنة 1887 لإعادة صلاحيات النظر في القضايا الشرعية إلى قضاة مسلمين⁽⁴⁾.

إن كثرة العرائض دفعت الحكومة الفرنسية إلى النظر إليها بجدية والبحث عن البدائل لها قبل فوات الأوان حيث أوفدت بعثة برلمانية إلى الجزائر سنة 1891 برئاسة جول فيري⁽⁵⁾ (Ferry Jules) لدراسة الوضع في الجزائر، وتقصي الحقائق حول فحوى كثرة العرائض وكذا مرجعية اليقظة الجزائرية⁽⁶⁾. ويتضح مما سبق دور سكان

1- «Pétition faite par un groupe de conseillers municipaux indigènes des communes de Oued-Seguin, Guettar el Aiech, Ain Smara», Question Algérienne, imprimerie Georges Heim, Constantine, 1891, p 16-17.

2- Pétition faite par un groupe de conseillers municipaux indigènes des communes de Oued-Seguin, Guettar el Aiech, Ain Smara», p 47.

3- أحمد مريوش: المرجع السابق، ص 120.

4- جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية، ص ص 211-214.

5- جول فيري ولد في 1832/04/05 بـ سانت دي (Saint-die) سياسي فرنسي من أنصار الحركة التوسعية، تقلد عدة مناصب حكومية كوزير للتربية ورئيس للوزراء (1881-1880) و(1883-1885)، خدم سياسة فرنسا الاستعمارية فاحتل الفرنسيون في عهده تونس 1881، ومدغشقر 1885، وضع مشاريع لخدمة الاستيطان الثقافي الفرنسي بإصلاح التعليم في الجزائر وفق التوجه اللاتيني، ترأس لجنة التحقيق التي أرسلها مجلس الشيوخ الفرنسي إلى الجزائر، توفي في 1893/03/17. أنظر: منير البعلبكي: معجم أعلام المورود، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص 338. وأحمد مريوش: المرجع السابق، هامش 58، ص 135.

6- أحمد مريوش: المرجع السابق، ص 126.

المدن في مقاومة السياسة الاستعمارية برفض الإجراءات التي من شأنها أن تمس بأحوالهم الشخصية، وممتلكاتهم التي أقرها اتفاق سنة 1830، وتوثيق ذلك الرفض بعرائض ممضاة من مختلف فئات المجتمع تكس معاناته ورغباتهم.

الخاتمة:

عكست العرائض خلال القرن التاسع عشر حراكا سياسيا جزائريا مواكبا للتوسع الاستعماري حاول مواجهة السياسة التعسفية الاستعمارية، وتخفيف وطأتها على المجتمع، فكانت هذه العرائض تمثل البداية الموفقة لتنظيم المجتمع الجزائري، والتأكيد على المطالب المشروعة الجامعة والموحدة للكثير من الأقاليم، وإذا كانت الإدارة الفرنسية لم تستجب لها مباشرة، فإنها وضعت المطالب حيز الدراسة.

قائمة الببليوغرافيا:

- أحمد يحيى شريف: جواب من القايد يحيى شريف أحمد بن سليمان، كونسيلي جنرال بعمالة قسنطينة الساكن بقصر الطير حكم سطيف، أجاب به راييس الكومسيون بباريس عن المسألة الجزائرية، مطبعة روكة، سطيف، 1891.
- الأشرف مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.
- البعلبكي منير: معجم أعلام المورد، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.
- مريوش أحمد: «ثقافة المقاومة ونماذج من عرائض الأهالي الجزائريين إلى فرنسا خلال القرن 19 م»، حوليات التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ع 6، (ديسمبر 2012).
- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج 2، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- قنان جمال: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994.
- قنان جمال: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- Pétition faite par un groupe de conseillers municipaux indigènes des communes de Oued-Seguin, Guettar el Aiech, Ain Smara», **Question Algérienne**, imprimerie Georges Heim, Constantine, 189

